الشرق

لفيلسوف الشرق امين الريحاني

— ١ —

أنا الشرق

أنا حجر الزاوية لأول هيكل بني فيه لله ولأول عرش من عروش الانسان لذلك تراني محني الظهر، ولكني قويم الرأي ثابت الجنان

أنا جسر الشمس

من أعماق ظلمات الأكوان الى الأفلاك الدائمة الأنوار تصعد كل يوم على كتفي وتكافئني مكافأة جميلة،

سأحمل ان في جيوبي، وفي يدي، وفي فمي، من ذهب الفجر ما لا نظير له في معادن الارض كلها

تزودني الشمس للترحال، وتزود مني البصر أيضاً والجنان، وأنا على ثباتي في رحلة دائمة كالكواكب لا تبصر حركتها

إن أول القافلة، قافلة نفسي، ليتصل بالجوزاء

وإن آخرها — لست أدري اليوم أين آخرها ؟

قد يكون واقفاً مستكشفاً في أبواب ليفربول

أو نائماً تحت عرائش الياسمين في سمرقند

او جاداً على ضفاف النيل

او ضائعاً في المادة البيضاء في نيويورك .

ولكني قنوع رضي مطمئن، لأني وإن كنت لا أرى ساقة القافلة فإني مبصر قادتها

وإني لأسمع طنطنة الأجراس عند المساء

وصوت الرسول يحييني كل صباح مسلماً
وفي يده ثوب جديد ألبسهُ ليومي
نسج من لا ينسج إلاّ لصاحب الجلال ربّ الليل والنهار

— ٢ —

أنا الشرق
وقد جئتك يا فتى الغرب رفيقاً
فكن صبوراً اذا كنت لا تحسن السكون

إني مثقل أحمالاً لا تراها العين التي ترى الاقطان وتشتهي الثروة والجاه .
ولو رأت عيناك بعض ما أنا حامل لخررت ساجداً وزحمت شاهداً

وفي جيوبي أبضاعتي بدي أشياء من حقول النفس ومن جبالها وأشياء من أغوار الحياة

أشياء ترضي الله وترضي الانسان ، وأشياء لا ترضي لا الانسان ولا الله .
منها ما أود نبذه لو استطعت ذلك دون أن أضر بحوري صاحب الخلود والمدرعات . ومنها ما أودّ إخفاءه لو أني لا أستحي من نفس البصيرة . ومنها ما أود اصلاحه لو كان لصناع هذا الزمان ضمير يشفع باليد الرحمة والبصر الثاقب

وهناك أشياء يا فتى الغرب ، لك فيها الحبوز والسعادة . عندي ما يسكن نفسك المضطربة ويشفيها . عندي ما يشفي ما في قلبك من أمراض التمدن . عندي ما يبعث فيك عدلاً يتجاوز استياءك وحرمة لا يقدسه سواك

عندي ما يقيدك رجلاً ويداً ليداً ولمقربة فترى السكون اذ ذاك والعقل منك مطلق ، والقلب مطلق ، وتتأمل كذلك أسرار الوجود

— ٣ —

أنا الشرق
لي عروس في الليل القديم البهيم لا تفارقني أبداً
ولي أيضاً في كل يوم بكرٌ من الحسان
تحييني منتعلة جواد الفجر

لتخبر البحر مني والجنان
أراها تترنح من رحيقي حيرى
وأرى صباي أمامي يهتف للفجر
لأن الفجر الذي يجري في النفس مثل سلسبيل نقي في الجبال تبدو خلاله الأعشاب خضراء وهي تعانق الحجارة والصخور فتبعث فيها روحاً يستحيل التجديد عندها نشيد حب وتشويق، بل نشيد وطن يستفيق.

— ٤ —

— أنا الشرق
أنا شيخ يا فتى الغرب الناحل
شيخ في موكب الزمان — في موكب الحياة الدنيا
ولكن لشيخ صوتاً بل أصواتاً تسمع شيئاً منها اليوم وستسمعها مثلاً غداً
أصوات متعاونة متنافرة، إلا أنها من قلب واحد هادئ حتى في حركتي
ركتها، وظاهرة في كلمات بلادك
صوت شيخ في الخلوات ويتأجج في الأماكن المقدسة
وصوت يحدو في الصحراء ويملأ جبال تفراي سكوناً مهيباً
وصوت يهمس في أذن أدبائك نغمة جديدة مستطلعة فيصدها ويفرد
وصوت يتماوج سابحاً على وجه المياه في الأنهر المقدسة
وصوت يحن شوقاً في ظلال الحرمين
كم [illegible] ويطن في المنابر الجديدة منابر الوطن
صوت ينشد «نوقنا» لآلهة من ذهب ذات عيون من زمرد صحيحة
ويتغنى «بذكرها» وبالقضاء والقدر في أكواخ البؤس والإثم والشقاء
وصوت يهتف استحساناً في ملاهي بلادك، يا فتى الغرب، وفي مراقصها
كما أنه يحدث في قهواتك، حول كأس من الخمر، بأحدث رأي علمي في الجاذبية، وبأحدث رأي سياسي في عصبة الأمم